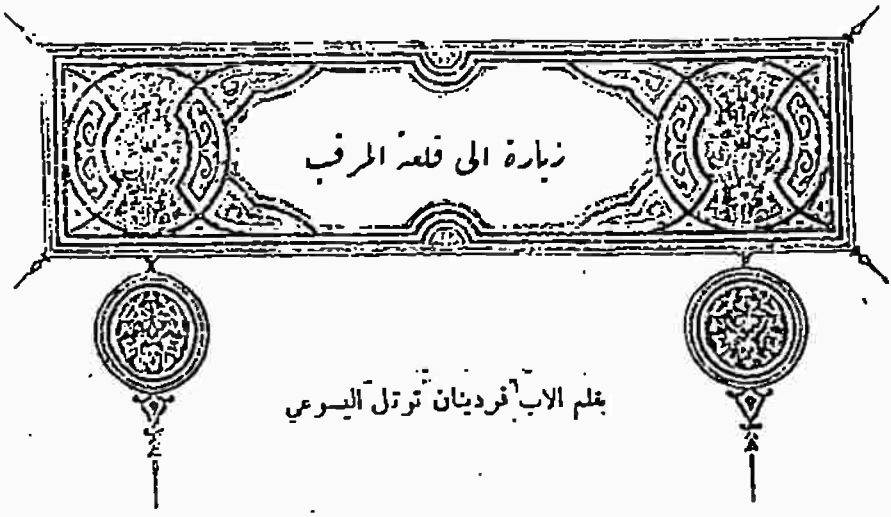

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

توطئة

يمكن للسيارات منافعها في تقريب المسافات وحمل الزاد ، بسويعات معدودة ، من اقاصي البلاد الى اقاصيها ؛ فلها مضراتها ، وهي آفة الصبر وبليّة التأني الذي لا بد منه في زيارة الآثار ، للنظر اليها بعين الدقة والتمحيص .

راننا في زيارتنا قلعة المرقب في اوائل تموز ، مع اساتذة الجامعة اليسوعية ، اختبرنا من السيارة منافعها ومضراتها . على ان المنافع ، والحمد لله ، غلبت المضرات . وبفضل آلة التصوير الشمسية طبعنا على اطار البلور ما لم يتسنَّ للعين ان تطبعه في الذاكرة . فجلنا في قلعة المرقب جولة المستعجلين لكننا لم نبارحها الا وفي الجعبة تصاوير عديدة لبروجها ومشارفها وجدرانها ، وفي الذاكرة شبحها الهائل المتقطعة رجومه على صفاء الاديم الازرق في سماء بلاد العلويين .

وعدنا الى الجامعة ، والى المكتبة الشرقية ، فانتقلنا من سياحة السيارات الى مراجعة التآليف واذا هي حافلة بذكر المرقب وآثاره وتاريخه واكثرها الكثير هو باللغات الافرنجية ، من كتاب الكردينال جاكو الموضوع دليلًا لارض العلويين ، الى مؤلف فان برشم فاسيو ، المطبوع في القاهرة سنة ١٨٩٧ ، وفيه وصف الرحلة السورية ، الى مؤلفات دوسو الافرنسي ، وريتر الالماني ، وهونيكمان[1]

(١) دائرة المعارف الاسلامية وفيها سلسلة المصادر ، مادة « مرقب »

ومن رُوي عنهم من امثال بوركارت ، ووالپول ، ولسترانج . وهؤلاء لم يغفلوا الاطلاع على ما كتبه العرب في حصن المرقب كياقوت ، وابي الفداء ، وصاحب كتاب تشريف الايام ، مترجم السلطان قلاون ، وابن بطوطة ، وسيف الدين الدمشقي ، والقلقشندي ، وغيرهم ؛ فعليهم معوّلنا .

ولا عجب ان تكاثرت المصادر في البحث ، وتاريخ المرقب صفحة من اروع صفحات تاريخ الحروب الصليبية ؛ عالج الافرنج امره لما له من المكانة في الحُصن التي ابتنوها او رمّموها ، وعظّم العرب شأنه وقد يكون فتحه عنوان انتصارهم النهائي على الصليبيّين .

لقد تعقبنا المستشرقين في وصف القلعة الفني ؛ واستعرضنا اقوال المؤرخين ، واخصّهم العرب في ذكر الوقائع التي جرت فيها وحولها ؛ ولم يفتنا ما في مقالتنا من تطفّل وجرأة بالاقدام على الخوض في بحث لا يمسّه الا الاختصاصيون . ولكن استنادنا الى مؤلفاتهم ، وقلة ما يعرفه عنها ، لا اقول العامة ، ولكن الخاصة من الناطقين بالضاد ، ورغبتنا في تنبيه الخواطر الى الاهتمام بامر آثارنا ، تلك كانت الاسباب التي دعتنا الى الكتابة ، وقد تأتي في بابها صلةً لما سبقنا ووضعناه في « المشرق » وصفاً لما زرناه من قرى فلسطين وحوران وبلاد الفرات وبلاد العاصي[1] .

من بيروت الى بانياس فالمرقب

من بيروت الى طرابلس مسافة ٩٠ كيلومترًا ، ومنها الى طرطوس ٦٠ ، ومنها الى بانياس ٣٨ ؛ تجتازها السيارة فتسرّ على الطريق التاريخية القديمة ، قاطعةً نهر الكلب ، وبلاد جبيل ، والبترون ، فبكفار الى ان تدخل بلاد العاويّين . اليك عتليت وانصابها الفنيقية ! وهناك عن بعد ، جزيرة ارواد وبناياتها ، كانها العمارة البحرية الكبرى . جميلة هي كنيسة طرطوس الملوكية وقد وضعت عليها الحكومة يدها فجعلتها متحفاً تأوي اليه الآثار المكتشفة في تلك الربوع من اجزاء عواميد ، واعضاء تماثيل يغلب في صنعها الفنيقي اثر الفن

(١) في المجلدات ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣

المصري . نظرة عليها نلقيها وكفى ؛ والسائق خطفنا خطفاً . تركنا شعبة الطريق الى دريكيش ، عند خروجنا من طرطوس ، وبعدها الشعبة الى الشيخ بدر ، والمصيف . ثم تعطلت بنا السيارة فنزلنا وتعرفنا الى القرية المجاورة لذلك الموضع . هي مقن عرنوق وسكانها من الملكيين الارثوذكس . طربنا لسماعنا احد فتيانهم يتلو على مسامعنا الصلوات المألوفة : « قدوس الله قدوس القوي . . . نسبحك نمجدك . . . يارب ، يا اله ! » فقلنا له : « زاد الله عدد المسيحيين ! » ففرح لتمنياتنا . ثم ركبنا ، فجزنا جسوراً وانهاراً ، الى ان حطت بنا الرحال في بانياس ، وقد سماها اليونان بالانيا واللاتين فالانيا . كانت على ايام اليونانيين الاقدمين مركزاً لجالية اصلها من سكان ارواد ؛ وتبعت مقاطعة اقليم سورية الى ان صار مرجعها لاوديقية (اللاذقية) على ايام جوستينيان في القرن السادس الميلادي ، لكنها كانت ترجع بالروحيات الى اسقفية افامية . وفي القرن العاشر كانت تعود الى انطاكية ، طبقاً لما يلفت عنها في لائحة الاساقفة البيزنطيين . وجعل الصليبيون اسقفاً لاتينياً في فالنيا ، لكنه قلما اقام فيها لكثرة الحروب ، فكان يلجأ الى المرقب .

وفي كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ[1] اخبار طريفة تفيدنا عن علاقات الصليبيين والمسلمين فيها ، اخذاً عن شاهد عيان . وان اسامة لا يذكر الافرنج الا باللعن ، ولكنه اذا تطرق الى الكلام عن عدالتهم لا يمالك عن وفائهم حقهم من الانصاف ، فشهادته غير مجروحة ، وسوف تساعدنا في الرد على من يتهمون الصليبيين بمخالفة وعودهم في فتح المرقب .

قال ص ٦٤ : منزلة الفارس عند الافرنج :

« والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم الا الفرسان اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس (واسمه رتيه) من الشمراء ، وبيننا وبينهم صلح وانا اذ ذاك

---

(١) طبعة فيليب حتي .

بدمشق . فقالت للملك فلك بن فلك : « هـذا تعدّى علينا واخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم . فولدت وماتت اولادها ، وردّها علينا بعد ان اتلفها » فقال الملك لستة سيمة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكماً . » فخرجوا من مجلسه ، واعتزلوا ، وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك . فقالوا : « قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم . » فامره الملك بالغرامة . فتوسّل اليّ ، وثقّل عليّ ، وسألني حتى اخذت منه اربع مائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيّره ولا ينقضه فالفارس امر عظيم عندهم . »

واذ نحن في التنقيب على اخبار ذلك العهد في الارض التي تطأها اقدامنا، وعليها سوف نضرب خيامنا لكي نقضي الليلة على الحشيش او « الحلفاء » تصورنا جماهير الصليبيين والمسلمين المحتشدة في تلك الربوع ، ايام السلم ، وكل فريق يلتهي بالنظر الى اعمال الفريق الآخر ، وقد صار الموضع محجة للبراغيث فكثرت مع كثرة الناس وفتكت في لحمانهم فتكاً . والخبر جاء في كتاب ابن منقذ (ص ٨٦) قال : « عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، وان لم يكن في حرب ، وكان معهم البطرك ، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلّون فيها . يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد فرش ارضها بالحلفا . والحشيش فكثرت البراغيث ، فوقع لذلك الشماس ان يحرق الحلفا . والحشيش تحترق البراغيث فطرح فيه النار وقد يبس فارتفعت السنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً . »

وقضينا الليلة في جوار بانياس ولم نتحيّر باي القولين نعبّر عن احوالنا وهل الاصح ان نقول : اكلوني او اكلتني البراغيث . ولم يتطرق الينا الّا رجال المكوس ، وقد توهموا امتعتنا بضاعة مهرّبة ، فلما تحققوا امرنا عادوا ادراجهم وتركونا بسلام ، ولا صوت يناغي نومنا الهادي الا صوت موج البحر المبتسم على الشاطئ .

وصف المرقب

خرجنا من بانياس من جهة الجنوب ، وبعد زهاء ٨٠٠ متر تحولت بنا السيارة يسارًا الى الشرق ، فارتقت سفوح جبل سهلة الانحدار ، بانت لنا منها واجهة القلعة الشمالية . واجتزنا ، من ثمّ ، قرية المرقب . وما كانت دقائق حتى دارت بنا السيارة حول القلعة فبلغت الى ناحيتها الجنوبية ، وهناك وقفت ، فنزلنا عند المدخل .

رسم المؤلف ري الافرنسي قلعة المرقب رسماً اعتمد عليه الكتبة من بعده وقد نقلناه في الرسم ٢ :

ان انقاض الحصن كما هو في يومنا تشبه صورتها قنينةً راسها موجّه الى الجنوب وعقبها الى الشمال ؛ وفيها قسمان : القسم الجنوبي وفيه انقاض البروج والمعاقل والمشارف المكوّنة منها القلعة بمستحكماتها ، وهي تشرف على الساحل ، بينها وبينه صخور وقيعان تمخضت بها الارض فاحدثتها في ثوراتها البركانية بين زلازل واعصار . والقسم الشمالي كانوا يلجأون اليه في سكناهم فكان اشبه بالقرية ، وهو الى يومنا مبيت لبعض الفلاحين . وكلا القسمين يحيط بهما سور منيع مزدوج الجدران مدعم بالبروج ، اعظمها البرج B وقد اعاد بنيانه المسلمون بعد استيلائهم على الحصن .

اما مدخل القلعة من الجنوب فهو باب واسع يُرقى اليه بدرج عريض يصلح لسير الناس والدواب ، ومنه يدخل الى بائكة محكمة البنيان ، منها المنفذ الى حرم القلعة ، ومنها ايضاً الدرج المؤدي الى سطحها ، المحاط بمشارف وهو من بناية القرن الثالث عشر .

من صحن القلعة يمتدّ النظر جنوباً نحو مدخل المعبد H (الرسم ٥) وهو بهو كبير وصفه انلار في كتابه على «آثار الصليبيين الدينية» (المجلد الثاني ص ٤٤٢-٤٤٣) وان متنه الافرنسي مكتظ بالالفاظ المخصوصة بفن البناء ، حاولنا تعريبها ما استطعنا اليه سبيلاً ، قال : « كان معبد سركات (المرقب) كنيسة لسكان القلعة ومصلى لمطران فالنيا او بانياس تلك الكنيسة فيها صحن وحيد معقّد السقف

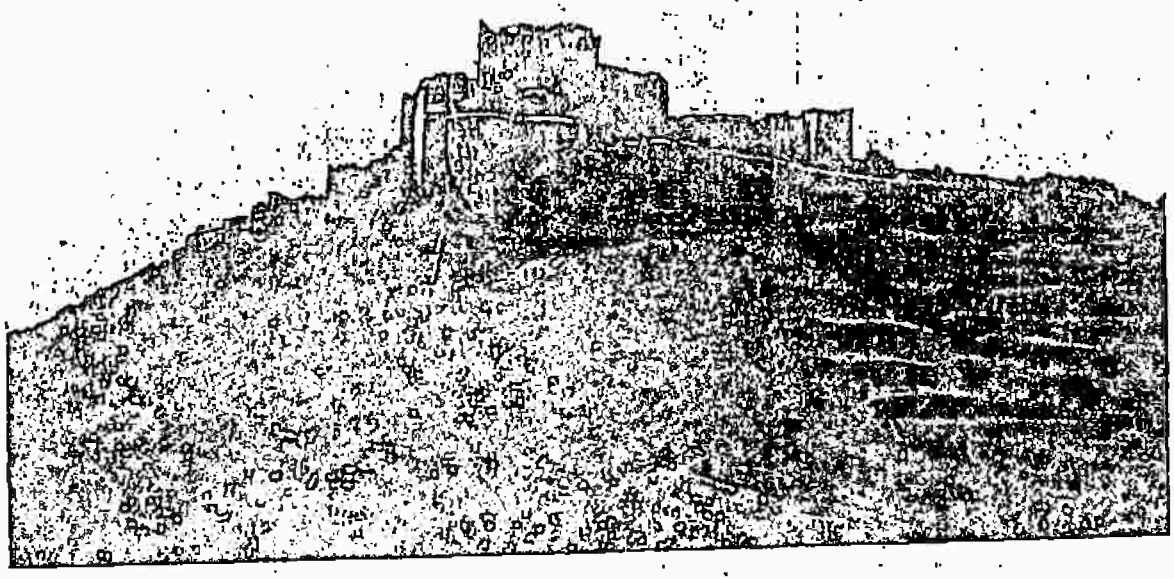

الرسم ١ – قلعة المرقب من بناء القرن الثاني عشر والثالث عشر

PLAN DU CHÂTEAU DE MARKAB (MARGAT)

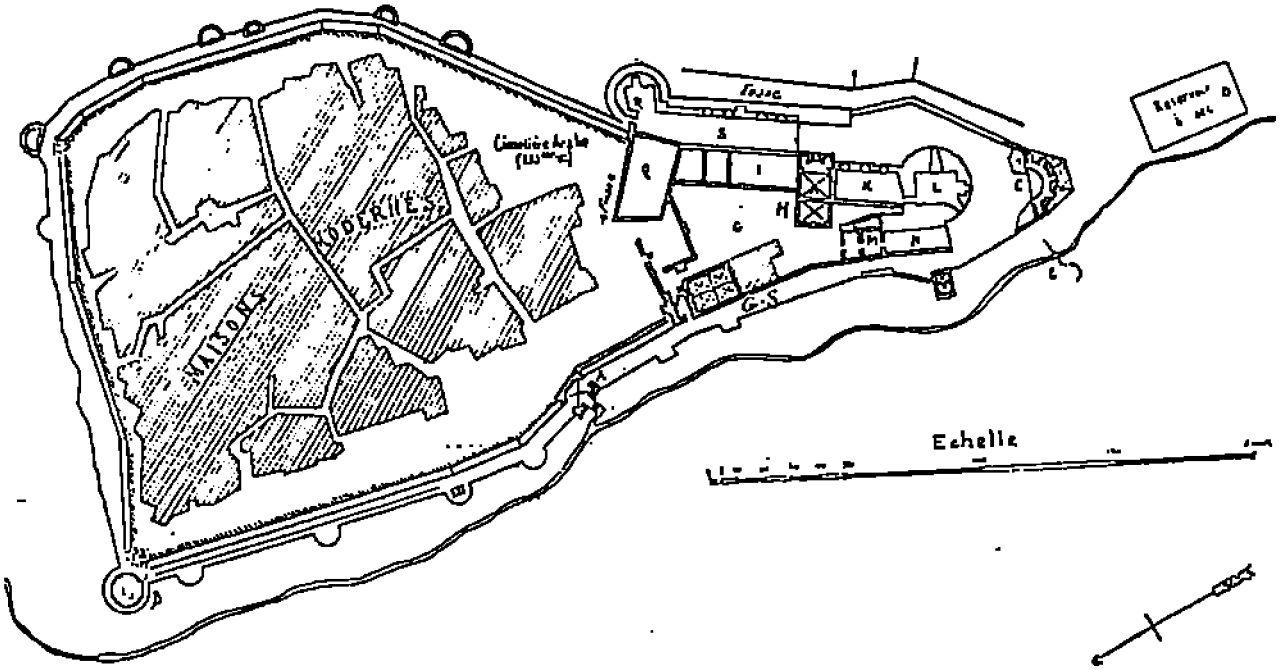

الرسم ٢ – رسم ري

الرسم ٣ – المرقب عن بعد

الرسم ٤ – انقاض الباشورة

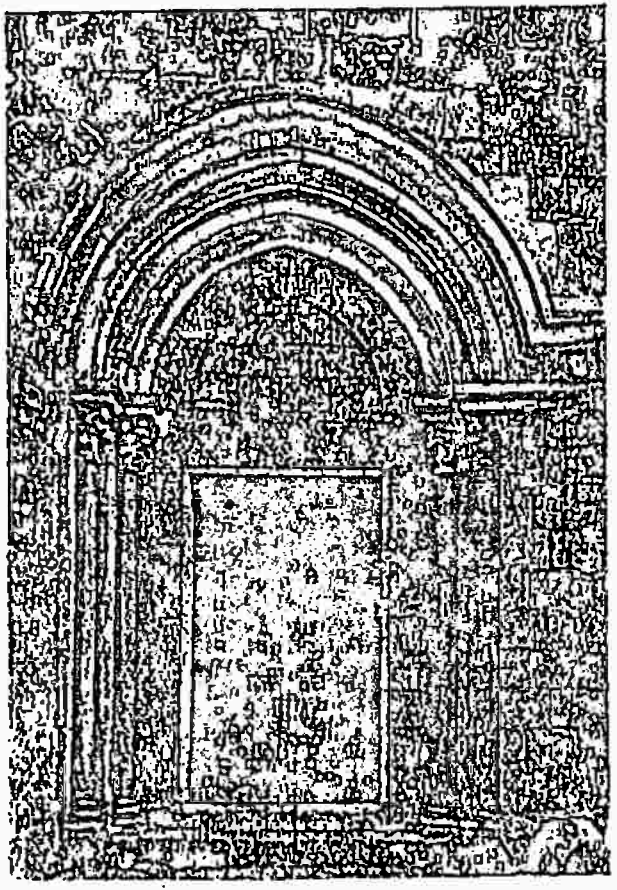

الرسم ٥ – باب الكنيسة

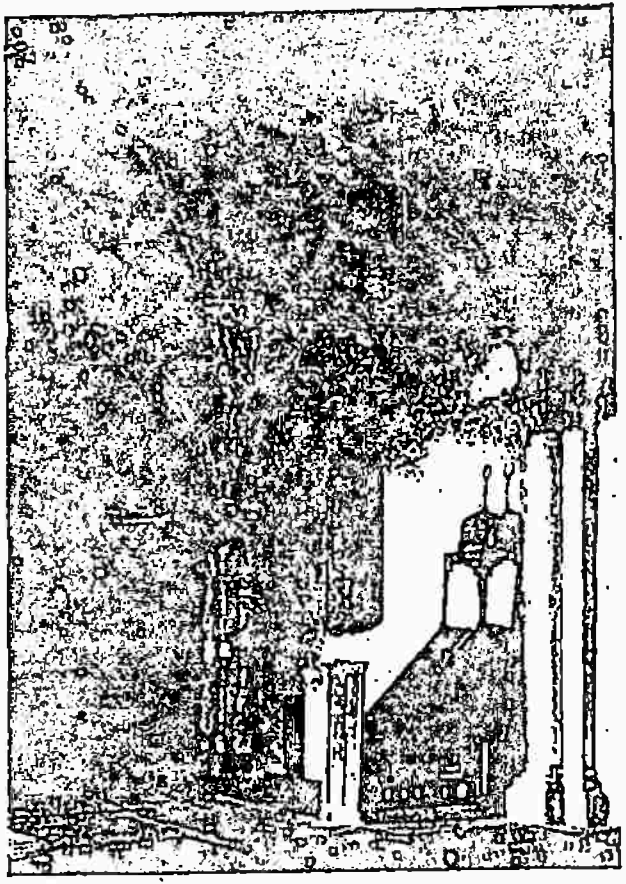

الرسم ٦ – داخل الكنيسة

بحنايا ، ولهـا صدر او محراب مبني في مربع مستطيل وعلى جانبيه في الزاويتين غرفتان صغيرتان للسكرستية . هذه الكنيسة الصغيرة بُنيت بالحجارة المنحوتة الجميلة على طراز شريف وبسيط معاً وقسمت الى شطرين بقنطرة مستندة الى عمودين وراءهما قوائم ملتصقة بالحائط مربوعة وعليها تاجان ملتصقان بزوزوس القوائم . وهناك شبابيك رؤوسها مثلثة الاضلاع وهي في فتحة من الحائط ، واسعة في جانبها المحاذي لصحن الكنيسة ، ضيقة في صدرها ؛ منها شبّاك في صدر الكنيسة ، وشبّاك في الواجهة ، وشباكان في كل قسم من قسمي الصحن . وللكنيسة بابان جميلان احدهما في الغرب ، والآخر في الشمال لكل منهما حنية عقد مثلثة الاضلاع ، خزيفة القد ؛ وهي من صنع القرن الثاني عشر ، وعليها تضافير بارزة وتحتها قاعدتان عليهما عمودان أهيفان اما واجهتا البابين فمنحوتتان ، وليس للعتبتين الفوقانيتين مقرنصات تستندان اليها . وان صانع عقد الحنايا قطعها اقفيًا عند الواح تيجان العواميد وفصل بين حنية وحنية بعرض المدماك .

اما ارجل العواميد فتذكّر بالقد الاتيكي الحسن ، وتيجانها تتشابه ، وهي من الرخام ، وطرازها كورنتي باوراق غير مثقوبة منحنية الاطراف على شكل اقواس الدائرة كما يوجد ذلك في كنيسة طرطوس ، وفي محراب المدّ ، وفي باب غزة ، وفي غير ذلك من البنايات الصليبية . وهذا المعبد الجميل هو مثال صاف لطراز الفن الرومي (roman) المستعمل ما وراء البحار ، خارج اوربة .

في ناحية صحن القلعة الغربي بقايا بهو كبير G S فيه اربعة مقاطع كان سقفه ذا حنايا يحملها في الوسط عمود مركزي ، وفي الاطراف اركان وقوائم . وكانت جدران البهو مزينة بالصور ، وفيه عقدت مشورة الفرسان الاخيرة حيث قرّ قرارهم على تسليم القلعة للمسلمين في ٢٧ ايار سنة ١٢٨٥ . اما البرج الاكبر فعلوه ٣١ مترًا ، وطول قطر دائرته ٢٩ مترًا ، وسمك جدرانه خمسة امتار وفيه طبقتان للدفاع ؛ وكان بين الطابق الاعلى والطابق الاسفل ثقوب يتكلمون فيها ، وبفضلها يصير التفاهم بين العساكر في القبو التحتاني وبين الحرس الواقف على المشارف . وفي اعالي ذلك البرج كانت طريق مستديرة محوّطة بالمرامي المخرّمة ، وهناك سطح كانوا يضعون عليه آلات الحرب الكبيرة .

في الصور التي عرضناها تظهر انقاض متراكمة (الرسم ٨) من بقايا مساكن وغرف واقبية دارسة كانت فيها المخازن والاسطبلات، ومواضع سكنى العساكر، والدهاليز الرابطة بين سائر الحصن. انما هي اثر بعد عين صبرت على مئات السنين وهي تحدثنا اليوم باعمال الصليبيين.

قلت اعمال الصليبيين، لان بنايات المرقب بعضها ينسب الى البيزنطيين وبعضها الى العرب. ولكن اجمل ما بقي فيها انما هو من اعمال الافرنج وقد ختموه بختمهم، وهو طرازهم الخاص في البناء النوطي الرومني. تصفح انلار تفاصيله في الحجارة وستى كل حجرة باسمها او كاد، وان نقل اقواله الى العربية لمستحيل. ونتمنى ان يوفق انة اللغة الى وضع الالفاظ المساعدة على ترجمتها. ولا بد، في وصف المرقب، من ملاحظة نأتي بها خدمة للصدق في التاريخ.

ان بعضهم لا يزالون الى يومنا يبخسون الصليبيين حقهم من الفضل على الفن والصناعة في الشرق، ولم ينسبوا للعرب الأكل حسنة وللصليبيين الأكل سيئة. وربما استبانوا بعض فوائد الحروب الصليبية، لكنهم لا ينفكون يشنّعون سمعتها، فينسبونها وشرورها الى الكنيسة ورجالها، فيغفلون ذكر الاسباب الجوهرية التي دعت بالمسيحية لتكافح عن كيانها بالسيف لئلا «يلتحم عليها طرفا الهلال.»

في مقال على سورية في زمن الصليبيين تنزه السيد نقولا زيادة[1]، وصف احوال البلاد وصفاً قيّماً مستنداً الى المصادر؛ لكنه لم يميز بين الغثّ والسمين. فلا كرد علي ولا برونو عمدة يُعتمد عليها في الدرس الصادق لحوادث الحروب الصليبية؛ ينظر اليها الاول بعين غير مجردة عن التعصب الديني، والثاني يحصر نظره في دائرة المسائل الثانوية فيجمع للصليبيين ذكرى الحوادث السيئة، وهذه تحدث اينما كان بشر، ولم ينسب الى نور الدين وصلاح الدين واشياعهما الا كل فضيلة وحسنة[2] فما احرانا ان نرجع بهؤلاء الى قلعة المرقب ليدرسوا في انقاضها

---

١) في مقتطف ١٩٣٥، يونيو، ص ١٦ وما بعدها، ويوليو، ص ١٤٣ وما بعدها.

٢) لامنس: سورية ١: ٢٢٦

آثار الفن البناني الصليبي ولا يخصوا محاسنه كلها بالمسلمين كما فعل الكاتب المذكور اذ قال في الصليبيين : « انهم قلدوا المسلمين في البناء الحربي الديني » (ص٢٠٢) ولم يزد على ذلك ، فاوهم انهم لم يبتكروا . والواقع خلاف الوهم ، والمرقب شاهد .

تاريخ المرقب

البيزنطيون يسمونه Μαργάτης واللاتين « مرگات » او « مرگاتوم » (Merghatum) وان له تاريخه قبل الفتح الصليبي ، وفيه ، وبعد نزوح الصليبيين عنه .

قبل الفتح الصليبي — بناء الحصن

في ذلك العهد تناوب العرب والبيزنطيون في تملك القلعة ، فوضعوا بناياتها الاولية ، ولعلهم وجدوا فيها آثاراً لمن سبقهم في الاستيلاء على البلاد ، لان لفظة « عمّر » التي رواها ياقوت يمكن تأويلها بان « المعمّرين » وجدوا في آثار غيرهم مادة لما بنوه . قال في المعجم[1] :

« المرقب بالفتح ثم السكون والقاف وباء موحدة ، وهو اسم الموضع الذي يرقب فيه ، بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس . قال ابو غالب همام بن المهذب المعري في تاريخه[2] : وفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢) فيها عمّر المسلمون الحصن المعروف بالمرقب ، بساحل جبلة ، وهو حصن يحدّث كل من رآه انه لم يرَ مثله ، واجمع رأي اصحابه على الحيلة بالروم فباعوهم الحصن بمال عظيم وبعثوا شيخاً منهم وولديه رهينةً الى انطاكية على قبض المال وتسليم الحصن . فلما قبضوا المال ، وقدم عليهم نحو ثلاثمائة لتسليم الحصن ، قتلوهم واسروا آخرين كثيرين فباعوا انفسهم بمال آخر ثم فدوا ذلك الشيخ وولديه بمال يسير وحصل المسلمون على الحصن والمال . »

---

١) طبعة وستنفلد ، ص ٥٠٠ من المجلد ٤

٢) مؤرخ نجهله . عسى ان يوفق منقب الى اكتشاف مؤلفه .

وترى ان وصف ياقوت للقلعة لا يعرفنا بها التعريف الذي يرتاح اليه الخاطر ، وما اكثر ما يوجد من حصون كل من يراها يحدث انه لم يرَ مثلها، ويكفي ان يكون لم يخرج من قريته فيحدث عن اكبر بناية فيها « انه لم يرَ مثلها » .

اما مخالفة سكان الحصن وعهودهم فسوف تؤدي لنا مادة لنظرات قيمة في تاريخ الصليبيين والردّ على من اتهمهم بقلة البرّ بالوعود .

وفي كتاب « عجائب البر والبحر » لشمس الدين الدمشقي[1] تعليقات على المرقب لم يأتِ بها صاحب المعجم . قال شمس الدين : « المرقب ثغر منيع ، على راس شاهق ، مطلّ على البحر ، كبير ، مثلث الشكل ، بناه الرشيد على اثر قديم ، ثم النصارى ، ثم ملكه المسلمون في عصرنا . »

وقال فان برشم (ص ٣٠٤ في الحاشية ٢) : ليس من المحتمل ان ينسب الصرح الى رشيد الدين سنان زعيم الاسماعيلية لان المرقب على ايامه كان في أيدي الاسبيتاليين ؛ وارتأى ان الرشيد انما هو هارون الخليفة وقد ذكر على سبيل المجاز ، اذ نسبوا اليه كل عمل عظيم كانوا يجهلون اصله ، شأنهم في نسبة امثاله الى سليمان . ولكن ليس ، في نظرنا ، مانع يحول دون ان يكون الرشيد هو الذي وضع اساسات المرقب ، ومعروف ان على ايامه بنيت العواصم والثغور ، صيانة للبلاد من هجمات البيزنطيين[2] .

وفي السنة ١١٠٤ احتل البيزنطيون المرقب وغيره من الحصن المجاورة كصافيتا وجبلة وغيرها ..

استيلاء الافرنج على المرقب

في اي سنة فتح الافرنج المرقب ؟ وكيف فتحوه ؟ وكيف عاد فانتقل من ايديهم الى ايدي المسلمين ؟ هذه اسئلة مصادر الجواب عليها نوعان منها عربية ومنها لاتينية ؛ وبالمقابلة بينها حلّ المؤرخون التعليمات التي ساعدتهم على وضع تاريخ الحصن .

---

١) طبعة مهرن الافرنجية ، ص ٣٠٨

٢) لامنس : سورية ١ : ١٢٦

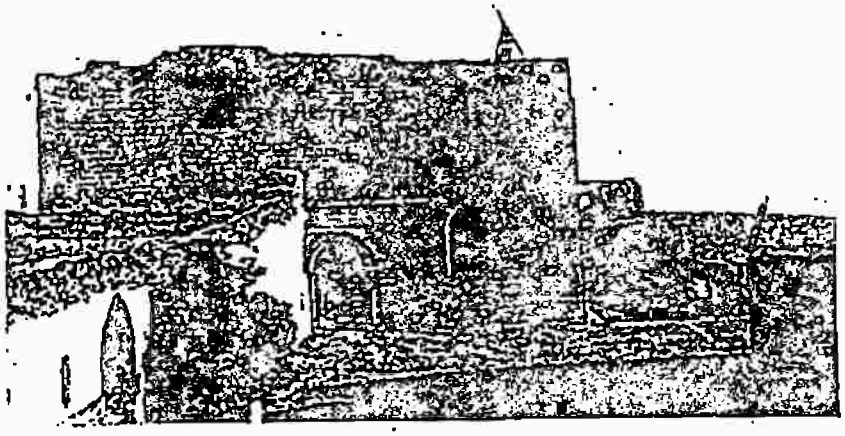

الرسم ٧ - واجهة الكنيسة الشمالية

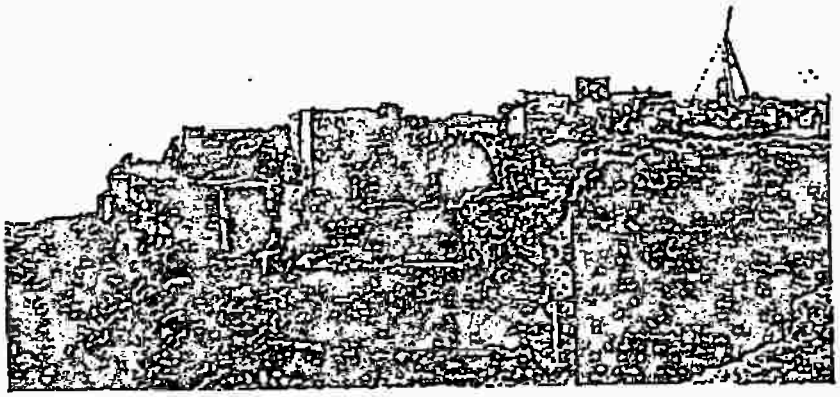

الرسم ٨ - انقاض متراكمة

في السنة ١١١٧ - ١١١٨ هاجم الصليبيون المرقب وكان في حوزة المسلمين، فضايقوه وكان صاحبه يعرف بابن محرز . فارسل الى اتابك طغدكين يسأله ان يستلم القلعة لئلا تسقط في يد الصليبيين ؛ وكان طغدكين حاكم دمشق ومؤسس دولة المماليك وجامع كلمة امراء المسلمين[1] .

وكان الحصار قد اخذ بخناق الحامية وقلّت المؤونة وارتفع سعر القوت والحاجيات واشتد الغلاء ؛ وفي غضونها كان حاكم جبلة ابو محمد بن الصليعة في دمشق ، بالقرب من طغدكين ، فاستنجده ايضاً ابن محرز برسالة عرض فيها عليه الحصن ليستولي عليه ويؤمّنه من الافرنج وقال : « ان لم تلحقونا اعطيناه للفرنج . » وكانت جبلة قد سقطت في ايدي الصليبيين ، فكانت الفرصة سانحة لاستردادها ، ودفع غارات الصليبيين عن المرقب . فاشار اتابك طغدكين على ابن الصليعة باخذ المرقب ، واطمعه في انه يسترد جبلة ووعده النجدة والمعونة فسار ابن الصليعة من دمشق وذهب الى حماة ، ومنها الى حصن شيزر فابتاع فيها ما يكفيه من غلال عدة شهور ، فبلغ الى قلعة المرقب وتسلّمها ؛ وظل ابن محرز فيها ؛ وارسل ابن الصليعة نوّابه لاسترداد جبلة . وحدثت في السنة ٥١١ هـ (١١١٦م) مجاعة من جراء اتلاف المزروعات في البلاد فارسل ابن الصليعة الى اتابك طغدكين على يد ابن محرز صاحب الحصن يسأله المعونة. بغلة تُحمل اليه .

وفي غضونها كان روجار ، صاحب انطاكية ، قد خرج الى حماة ورفنية ، فخرج اليه اتابك طغدكين . وكادا يلتقيان بالقتال ؛ ثم جرت بينهما مراسلات ادّى امرها الى ان يبتعد روجار عن حماة وعن رفنية ، على ان يتسلّم المرقب. ودفع اتابك اربعة من اصحابه رهينة على الوفاء . وعاد روجار الى انطاكية . وراسل طغدكين الذين بالمرقب ، وأمرهم بالتسليم الى الافرنج على غير قيادة ولا تعويض . فارتاعوا من هذه الرسالة وصرفوا رجاله ، وابوا التسليم الى الافرنج ولم يحفظوا العهود التي قطعها اتابك طغدكين ، ملك دمشق ، مع

---

١) راجع كرد علي : خطط الشام ١ : ٢٨٥

روجار . فصار الافرنج يلتمسون الحيلة الى احتلال القلعة .

ودبّ الخلاف بين ابن الصليعة وابن محرز . وخاف ابن الصليعة من اهل المرقب ، فخرج منها . فوثب اهل المرقب ونهبوا ماله ؛ فأشعر ابن محرز بضعفه وارسل الى الافرنج بانياس بتسليمهم المرقب ، على ان يبقى اهله في جانب منه .

فاجابوه وتسلّموا المرقب منه . وبعد ايام يسيرة اخرجوه منه وعرضوه بالمنيقة .

هذه رواية كتاب مخطوط عنوانه « تشريف الايام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور » طبع ڤان برشم شيئاً منه فاخذنا عنه . ونوه هونيكمان بحوادث فتح المرقب فقال : ان الافرنج نكثوا العهود . ولم يلتفت الى كون اصحاب المرقب هم الذين خالفوا ما كان تعهّد به سلطانهم وكانوا اول من نكث العهد ؛ ثم من معاملتهم ابن الصليعة الذي نجدهم واحسن اليهم تستدل على ان الافرنج لم يُبقوهم في المرقب الا خشية الخيانة ؛ وعلى كل حال فقد عرّضوا عليهم بغير موضع للسكنى .

ودخل المرقب في دور تاريخه الثاني .

على عهد الصليبيين

واختلف المؤرخون على سنة فتحه ، وعلى اسم صاحبه ، لكنهم اجمعوا على انه كان من اسرة منسور (Mansuer) وهم من موالي امير انطاكية . على ان دولة آل منسور في المرقب لم تطل مدتها . وفي اول شباط سنة ١١٨٦ اشعروا بعجزهم عن القيام بهمتهم والدفاع عن الحصن فدعوا فرسان الاسبتار وسلّموهم المرقب وتخلوا عنه .

كيف جرى ان اسرة منسور النبيلة تخلّت عن حصنها ، وعن عنوان شرفها وما كان الداعي الى ذلك ؟ قد يرى المؤرخون السبب في ذلك الخراب الذي حلّ بالمرقب والمخاطر التي احدقت به ، مع انحطاط قوى اصحابه ، مما جعل اكتافهم تنوء دون حمله الثقيل ولا بد من كلمة استطراد في الموضوع تفسيراً لوقائع المرقب .

الفرسان «الاسبتار»

ان الحملات الصليبية كانت في جوهرها حروباً مقدسة ، وغايتها الاساسية تحرير الاراضي المقدسة من نير المسلمين . فكان السواد الاعظم من الصليبيين يدخلونها مدفوعين بالداعي الديني ، واذا أتوا الشرق وقاموا بما كانوا يعتقدونه واجباً تقيدوا به في خدمة الدين ، كانوا يهتمون بالعودة الى بلادهم . فعادوا اليها كباراً وصغاراً ، امراء وملوكاً وعامة ، لكنهم سعوا الا تذهب اثمار فتوحاتهم ضياعاً فجهدوا في تأسيس مملكة اورشليم وتنظيم اماراتها لتكون مستعمرة كاملة فيها من القوات ما يكفيها للدفاع عن ذاتها بذاتها ، من غير التعويل على اوربة لكي تواصلها بنجداتها . وبالطبع كان امر التجند اهم الامور في تلك المملكة ، والمسلمون كانوا يهادنون لمدات قصيرة ثم يعودون يهاجمون الصليبيين . فساهم الامراء الصليبيون في حشد العساكر من سائر العناصر التي دخلت في طاعتهم ، ليس فقط من مسيحيين ، ولكن من مسلمين ايضاً . على ان هؤلاء الرجال كانوا معاونين ، ولم يُعهد اليهم بامر القيادة وبالاعمال المتعلقة بها مقدرات المملكة وحياتها ؛ فكان الجيش النظامي الثابت اخصه من جماعة من الافرنج لا من عامتهم ولكن ممن تخصصوا للجهاد وقد انخرطوا بسلك الرهبان ونذروا النذور ، وضحّوا بحياتهم في خدمة المصلحة الصليبية ، طبقاً لما كانت تقتضيه الظروف . ومن هؤلاء كان الفرسان الاسبتار كما سماهم العرب .

دعوا بذلك الاسم نسبة لمستشفى القديس يوحنا في اورشليم المؤسس فيها قبل حملات الصليبية ؛ وعاشوا ، في بادئ الامر ، مقيدين بقانون القديس بندكتوس ، وقد بسط البابا حمايته عليهم . ولهم امتيازات وحقوق يتمتعون بها . لباسهم الوشاح الاسود المعلم بالصليب الابيض ، وختمهم فيه صورة مربض عنواناً لغايتهم الاولى . كانوا اولاً مختصين لمعالجة المرضى ، وصاروا من بعد يحملون السلاح في زمان الشدائد . وان ذلك الزمان حان في اواخر القرن الثاني عشر ، عقب الزلازل التي خرّبت المدن والقلاع واوهنت قوى المرقب فجعلتها مطمعاً للمسلمين . هي الهزات الهائلة التي اجمع المؤرخون على ذكرها ولنا في تاريخ الازمنة للدويهي وصفها المعتبر لما بذله المؤرخ الماروني من الهمة في

استقصاء اخبار تلك الايام قال[1]:

« في السنة الف وسبع مئة كانت الزلزلة العظيمة في الشام فلم يسمع مثلها. دامت نحو اربعة اشهر ولم تزل الناس تشاهد الرجفة من شدة الريح الذي انحصر بباطن الارض . وخربت انطاكية وجبلة وحلب وشيزر وحماه وحمص ؛ واما طرابلس فصارت كلها بشبه المقبرة . ما بقت فيها بيت عامر ولا خلص منها رجل حتى حكمه الموت ».

لم يأتِ اسم المرقب في لائحة الدويهي ولا في سائر المؤرخين العرب. اما الافرنج فذكروه في كتبهم بين الحصن التي خربتها الزلازل . فاشعر آل منسوير بعجزهم عن ترميمه وقد اعترام الملل من الجهاد المستديم فحنّوا الى بلادهم وتاقوا اليها ، فسلّموا المرقب الفرسان الاسبيتار وهم مستعدون لحمايته.

تحصين المرقب

فاحتلّ الفرسان الاسبيتار قلعة المرقب ، وصاروا يعنون بترميم خرابها وتحصينها ، وشحنها بالمؤن والذخائر اتقاء هجمات العدو . فتعززت على اياهم وعمُرت . كان آل منسوير قد بنوا الناحية الشرقية الكبرى في القلعة بجدارها المزدوج ، وخطوطها البسيطة ، وبروجها المستديرة الصغيرة الاطار المحصّنة بطبقة واحدة.

اما الفرسان الاسبيتار (١١٨٦—١٢٨٥) فبنوا القلعة في نصفها الجنوبي الاصغر ، اي المثلث الزوايا المستطيل الواقع بين الجبهة A غرباً ، والبرج R شرقاً ، والمسند C ، ذلك ما تدل عليه هيئة البناية اجمالاً وهي تنم عن اواخر القرن الثاني عشر ، واوائل الثالث عشر.

في السنة ١٢١٢م زار المرقب سائح افرنجي اسمه ولدبرد ، فوصفه ، وافادنا عليه ما لم يأتنا به ياقوت. قال:

« خرجنا من طرطوس فصعدنا الى المرقب وهو قلعة واسعة محصّنة يحيط بها سوران فيهما بروج عديدة . والجبل الذي بنيت عليه القلعة عال فهو حصن

---

١) مخطوط المكتبة الشرقية

الاسبيتار ، واعظم معقل في تلك البلاد وقد وُضع ضد المعاقل القوية العديدة التي بناها « شيخ الجبل » وسلطان حلب . فكبح حصن المرقب جماحهما ، والجأهما الى دفع الجزية ، فصارا يبتاعان الامن كل عام بالفي مارك . وخشية ان يهاجم الحصنُ مباغتةً ، لا ينفك الحراس عن حراسته ليل نهار ؛ وقد يحوي عددًا من من السكان عديدًا ، ويطعم فيه الاسبيتار الف رجل عدا العساكر ، وفيه المؤونة لخمس سنوات . »

ومن البديهي ان « الاسبيتار » ، على كثرة اموالهم وغناهم ، لم يستطيعوا ان يقوموا وحدهم بكل ما كانوا يحتاجون اليه من النفقات ، فيذكر تاريخهم ان ملك المجر ، بعد عودته من الحملة على الاراضي المقدسة ، مرّ بالمرقب . فاستقبله الاسبيتار ورحبوا به فجعل لهم اموالًا ينفقونها في ترميم ما انتقض من الحصن وفي صيانته . فعظم شأن الحصن . ومما يدل على مناعته في ذلك العهد ان صلاح الدين ، بعد ان ظفر في وقعة حطين وفتح القدس وغيرها من مدن المملكة اللاتينية ، طمح ببصره الى المرقب فسار اليه سنة ١١٨٨ لكنه لم يجرأ على مهاجمته فتحول عنه . قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين[1] :

« لما تكاملت عساكر صلاح الدين رحل ونزل تحت حصن الاكراد نزل على انطرسوس فوجد الفرنج قد خلوا انطرسوس فسار الى مرقية فوجدهم قد خلوها ايضاً ، فسار تحت المرقب وهو للاسبتار فوجده لا يرام ولا لاحد فيه مطمع » .

وكأني باحد شعراء القائد الكبير سار واياه على السفوح المحيطة بالقلعة ، وقاسها بنظره من اسافلها الى اعاليها ، وشاهد السحب تحف بجوانبها كموج البحر والقلعة سفينتها ، وحاول ان يكتشف مواضع بنيانها على الصخر ، فاذا هي قطعة من الجبل والجبل قطعة منها . نظر الى كهفها وخوافيها فاذا فيها يعشش النسر ، فقال فيها شعرًا سار مثلًا في الناس :[2]

---

١) طبعة شولتنس وترجمته ، ص ٤٤

٢) عن النويري : نهاية الارب في فنون الادب ، ص ٤٠٥ من الجزء الاول

وقلعة عند السيوق سافلها ؛ وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر ، اذ كان الغمام لها ارضٌ توطأ قطربه مواشيها
اذا الغمامة لاحت ، خاض ساكنها حياضها قبل ان تمسي غواليها
يُمدُّ من أنجم الافلاك مرقبها ، لو انه كان يجري في مجاريها
على ذرى شامخ وعر ، قد امتلأت كبرًا به ، وهو عاوٍ جما تيها
له عقابٌ ، عُقابُ الجوّ حالفةٌ من دونها ، فهي تخفى في خوافيها

ابتعد صلاح الدين عن قلعة المرقب ولكن لم يحول المسلمون نظرهم عنها . وقد قيض لهذه البلاد العزيزة ان تكون في موقعها الجغرافي جبهة التقاء الشرق بالغرب ، فان تمتعت بالسلم ساعة ، فالايام تتمخض لها بما ليس في الحسبان .

ففي السنة ١٢٠٤ سير السلطان الملك الظاهر الغازي ، صاحب حلب ، حملة على المرقب . فهاجم جنوده السور وخربوا منه برجين ، وكادوا يدخلونه لولا سهم قتل قائدهم فارتدوا خائبين . وكان فرسان الاسبيتار يخرجون من المرقب ، من حين الى حين ، فيغزون للاعتيار ، ويرجعون واشعر المسلمون ان لا راحة لهم ما دامت الحصون الكبرى في ايدي الافرنج . نعم ان بيبرس انشأ عهد مهادنات كان القتال يكف فيها من الجانبين ، فيتاح لكل فريق معالجة شؤونه وتضميد جراحاته . ولكن كل منهم كان يتمثل بقول الشاعر ويتأهب للقاء عدوه :

ان العدو ، وان ابدى مسالمة ، اذا رأى منك يومًا غرة ، وثبا .

وفي السنة ١٢٧١ سقط حصن الاكراد بيد المسلمين فاشعر فرسان الاسبيتار في المرقب بالخطر المحدق بهم ، والجئوا الى مهادنة ضحوا فيها بنصف املاكهم ، وتعهدوا الّا يزيدوا في بنايات المرقب بنايات غيرها .

ومات السلطان بيبرس ، وظهر التتر في نواحي حلب ، وهم احلاف الافرنج ، فاغتنم الصليبيون الاسبيتار الفرصة ، فغزوا اراضي المسلمين وروى ابو الفدا خبرهم ، فقال :

« في السنة ٦٨٠ (١٢٨١ - ١٢٨٢م) استأذن سيف الدين بلبان الطباخي ، احد مماليك السلطان الملك المنصور ، وكان نائب السلطان في حصن الاكراد ، في الاغارة على بلد المرقب لما اعتمده اهله من الفساد عند وصول التتر الى حلب ، فاذن له السلطان في ذلك ، فجمع بلبان الطباخي المذكور عساكر الحصون

وسار الى المرقب ، فاتفق هروب المسلمين ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا واسروا من المسلمين جماعة »[1].

وكان لذلك الفشل تأثيره المؤلم في المسلمين ، وتأهبوا للثأر . واشعر الاسبيتار بالخطر المحدق بهم فصاروا يتحفظون لئلا يفاجئهم السلطان على غفلة منهم .

سقوط المرقب في يد السلطان قلاوون

قد حفظ التاريخ للحروب الصليبية ذكرى وقائع شهيرة من قتال وفتح ، وربما كان دخول المسيحيين بيت المقدس وخروجهم منه وانكسارهم في حطين ، وجهادهم في عسقلون ، مما تثير قصته الاعجاب فتحول النظر عما دونها اهمية ؛ على ان الكفاح الاخير حول المرقب هو من الحوادث الخطيرة المعدودة محطة حاسمة في الحروب الصليبية الجديرة بذكرى التاريخ . لم يحفظ لنا الافرنج الا تفاصيل ضئيلة . ولا عجب ، فان ذكرها يثير اسفهم على فقدان حصن من اعز حصونهم . اما العرب وقد نالوا من فتح المرقب النصر ونتائجه ، فأسهبوا في الكلام على فتحه . ولنا من اقوالهم ما كتبه الشاهد العيان لتلك المواقع ابو الفداء ، وكان في الثانية عشرة من عمره لما حضر حصار المرقب ، وصاحب كتاب تشريف الايام المذكور سابقاً . وقد وصف فيه فتح قلاون للمرقب وصفاً مفصلاً فعولنا عليه في سرد الحوادث .

مات السلطان بيبرس سنة ١٢٧٧ فخلفه قلاون وصي ابنه واعلن ذاته سلطاناً سنة ١٢٧٩ ، فحارب المغول واحلافهم الصليبيين وكسرهم في سهول حمص سنة ١٢٨١ ، وتغلب على خصمه صنقر الاشقر صاحب دمشق ، وحمل على المرقب . وكان حصار القلعة يقتضي عدداً عديداً من العساكر . ولكن المثل السائر يقول : « اللطف بالحيلة اجدى للوسيلة » فاوهم قلاون الصليبيين انه اعرض عن المرقب . وصار يحشد العساكر سراً ليفاجئ اعداءه على غير أهبة منهم .

فجهز المجانيق في دمشق ، وأمر بحملها الى الجهة المجهولة . فسار الرجال ، ولا يعرفون الى اين السير والمصير . وتجهزوا بازوادهم ومقدميهم . وهم يضربون

١) راجع مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية : المؤرخون الشرقيون ١ ص ١٥٨

اخماساً لاسداس ، ويتحدثون في اي موضع يلاقون العدو ، وبعضهم يقول : ان الحملة الى بلاد الروم ، وغيرهم غير ذلك.

وفي غضونها تحركت العساكر من مصر بعددها وعديدها، فكانت زردخانة بكمالها ، وفيها احمال كثيرة من النشاب. ففرّقت على الامراء والجند. وجُهّزت آلات الحديد والنفط . وأُحضر الاختصاصيون من المهندسين والصناع الخبيرين بضرب الحصار واستعمال المجانيق.

ودار عمال قلاون على القلاع المجاورة للمرقب ، وهي في حوزة المسلمين فجرّدوها من مجانيقها ، من غير رهج ولا اظهار شيء. وحُملت الآلات والمجانيق على الاعناق والرؤوس ، وسار السلطان قلاون.

وبلغوا الى المرقب فنازلوه ، وذلك في يوم الاربعاء العاشر من شهر صفر (١٧ نيسان ١٢٨٥) وللوقت حُملت المجانيق على الاكتاف وطاف البلاء بالحصن من كل مكان ونُصبت المجانيق الفرنجية والقرابغا . ومن جملة ذلك مجانيق فرنجية كبار ثلاثة ، ومجانيق قرابغا ثلاثة ، ومجانيق شيطانية اربعة ، بحيث انها طافت بها من كل مكان واستمرّت ترمي من الحجارة بما يتطاير شرره.. واخذت النقوب من كل جانب واتفق ان المجانيق الفرنجية التي كانت في ايدي الاسلام كسرت مجانيق الفرنج . وتقدمت الاسلامية الى قريب القلعة فاصلح الافرنج مجانيقهم ورموا على المجانيق الاسلامية فكسروا بعضها. وقُتل تحتها جماعة من المسلمين... وانتهى النقب السلطاني وحُشي بالاحطاب وأُوقد في يوم الاربعاء سابع عشر شهر ربيع الاول . فعملت النيران في وسط النقب في البرج الذي في الباشورة[1]

وزحف المسلمون ليتسلقوا الباشورة ، واشتد القتال ، وقصدوا الصعود ، فما تمكنوا. فبطل الزحف، وانفصل هذا النهار ، وسقط البرج وتوهم المسلمون عسر التوصل الى الحصن وباتوا في قلق عظيم لان المجانيق تعطلت والنقوب التي صارت في السور ترممت ... فلما كان يوم الجمعة ... خيل الله للفرنج ان النقوب في

١) الباشورة : هي البرج المتعالي على مدخل القلعة ، وقد سماه الافرنج « Barbacane » (van Berchem)

بقية الاسوار قد اصابها ما اصاب النقب السلطاني وان النقوب تخرج الى الخنادق ومنها الى الابراج ، وهم لا يشعرون بذلك فأيقنوا بالهلاك وطلبوا الحديث في الامان والمعاملة بالعفو والاحسان ... فرأى السلطان ان اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم اولى من التطويل في حصاره ... فأجابهم الى العفو والامان ... فسيّروا اكابرهم الى الدهليز ، ولم يسألوا غير الامان على النفوس ، وان لا يخرج معهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصةً ... ومن له مال يتعلق بنفسه يُنعم عليه به ... وكتبت لهم امانات . وصعدوا ومعهم الامير فخر الدين المقري الحاجب . فحلف الجسطلين وبقية الفرسان وسلموا الحصن جميعه في ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الاول (٢٩ ايار) . ودخله السلطان يوم السبت واجتمع الامراء الاكابر في خدمته . وضرب للحال مشورةً في هدم القلعة او ابقائها فمنهم من اشار بهذا ، ومنهم من اشار بهذا ، فرأى السلطان ابقاءها لحصانتها ومنعتها وتحسينها وتزيينها ... ورتب بها الف راجل اقجية وبرخية ومقاتلة ، واربع مئة من ارباب الصنائع ، ورتب بها جماعة من الامراء اصحاب الطبلخانات ، وجماعة من البحرية الصالحية والمنصورية مائة نفر ، ونقل المنجنيقات التي كانت ترمي عليها فصارت ترمي منها وكذلك الآلات والاخشاب والاحطاب والنشاب والزردخانة والنفط ، ومن كل شيء كان في صحبته من اصناف الحصن وآلاته . ورتب لها خاصاً بلاد كفرطاب ، ومدينة انطاكية ، ومدينة اللاذقية ، والمينا ، وبلاد المرقب التي كانت خاصاً له وما كان مُقطعاً قبل الفتح . وجملة ما يتحصل منه عند عمارته الف الف درهم . ورتب كلف عمارته ونفقات رجاله على البلاد الى ان تتعمر وتتراجع اهلها . ولما تمت هذه الامور رحل فنزل بالوطاة على مدينة بلنياس[1] .

وما زال ذكر الفتح منقوشاً الى يومنا في برج القلعة الاكبر ، وقد رسمه قلاون واصلحه واليك نصه (عن فان برشم) :

(بسملة) . فتح هذا الحصن المحروس وانشأ هذا البرج المبارك

١) فان برشم ، ص ٢١٠ ، اخذاً عن القشريف ، ص ١٤٦

مولانا . . . سلطان الاسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين مبيد الطغاة والمنافقين سيف الدنيا والدين قلاون الصالحي ابو الفتح قسيم امير المؤمنين. وذلك في شهور سنة اربعة وثمانين وستمائة وذلك بتولي العبد الفقير بلبان المنصوري.

وها ان الايام طويت ، والسنين مضت ، وانقرض عهد المماليك وعاد الافرنج الى البلاد السورية، لا كالفاتحين، ولكن كالاصدقاء المرافقين والخلان المساعدين. لقد زرنا انقاض المرقب ، واحيينا في ذكر تاريخه حياة البطولة . عسى ان نحيا بها نحن ايضاً وهي خير تراث خلف عن سلف.